

الحَسَنَةُ إِلَى رَبِّكَ

« وَكَأَيُّنَ مَنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ،
« فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا
« ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ »

(١)

في هذه الضاحية النائية عن مكة، اختار سيد بنى عبد شمس، سعيد ابن العاص بن أمية، أن يقيم في قصره الهادئ بالظربية، وسط الحدائق الغناء، والظلال الوارفة، والاروج الواسعة المنتشرة الخضراء. ولم يكن الاختيار وليد التفنن في التعميم المترف واثراء الطاغى فحسب، وإنما كان كذلك وليد الهزات العنيفة التي كثيرا ما كانت تجر قبائل العرب وبطونهم إلى نار الحروب الممهاكة، حيث يمتد الصراع الدامي أعواما طوالا، حتى يأكل الأخضر واليابس... هذه الحروب الممهاكة التي كان آخرها حرب الفجار، حيث التحمت قریش وهو ازن التحاما شديدا، وكان لا بد لأشراف العرب أن يشاركوا فيها، وأن ياتقوا بأنفسهم مدافعين عنها... وكان سعيد بن العاص نفسه أحد المقاتلين في ميدانها، ومن ورائه أولاده جميعا، من كبر منهم قاتل معه جنبا إلى جنب، ومن صغر رمى من خلفه بالنبال... حتى انجأت المعركة الكبرى عن قتل كثير من الأشراف، ومنهم أحيحة أكبر أبناء سيد بنى عبد شمس... ومن ثم كان صدر السيد القرشي مليئا بالنقص والآلام لفقد أحيحة، ففضل المقام بالظربية بالجماعة العزلة لئلا أن يجد فيها السكينة لنفسه الحزينة الباكية...

وكان يحلو لعابري السيل حينما يروجون ويحيثون، أن يسلطوا أبصارهم من خلال الأسوار التي أنشأتها الخصال الكثيفة والأشجار المتشابكة حول القصر الرهيب، ليروا الجديد في الترف

يأديا على أبناء السيد القرشي ، وهم يرقلون في الدمقس والدياج ،
ويزينون رموسهم بالريش والأزهار ، وينشرون في الأرجاء رائحة
الطيب والمسك . . وكثيرا ما كان يتساءل الناس عن موعد خروج
السيد في كوكبة الأبناء في طريقهم إلى البيت الحرام ، لعبادة الآلهة
وتقديم القرбан . . أو إلى سوق عكاظ ليشاهدوا الجديد من
أسباب اللذة والمتعة ، وليسمعوا الجديد من ألوان الشعر والغناء . . فإن
هذا المشهد الرهيب بمثابة الأسطورة العجيبة التي يتمثل طيفها أمام
الآبصار بين آن وآخر . . لقد كان الناس يرون على رأس سيد بني
عبد شمس عمامته الكبرى ، التي أخذ أهل مكة على أنفسهم ألا يعتموا
بلونها إجلالا للسيد وتعظيما . . وما يكاد يطل عليهم الركب الجليل
حتى تنطلق الألسنة وتقول : « ذو التاج . . ذو التاج » ، ويسرع الجميع
إلى إفساح الطريق ، وإبراز الولاء والتعظيم . .

وبينما « ذو التاج » يتأهب للخروج ذات يوم وسط أنبائه إلى
عكاظ ، إذ انتابته قشعريرة ورعدة ، وكاد أن يسقط على الأرض
لولا أن تداركه الأبناء في حزن وإشفاق ، ثم ظلوا به حتى
استفاق ، فأكاد يلمح وجوههم بعد إغفاءته حتى أخذ يبيكي . . إنه
تذكر أحبيته ، وقد كان يلزمه إلى عكاظ لشهود سوقها مع قبائل
العرب من قبل . . حيث كان يضعه في الصدارة من قومه ، ليجعل
منه وارث جاهه وسلطانه .

وكانما أراد القدر أن يعينه على النهوض في ذلك اليوم ، ليجسمه

معنى الموت على لسان أحد الشعراء الموهوبين ، وليصرخ في أذنه
بأسرار الحياة وحقائقها . . هذه الحياة التي طغت عليها المادة ، فأحالتها
لونا حقيرا من المتاع ، يزول بزواله كل شيء . . فما كاد سيد بني عبد
شمس وأولاده ينزلون سوق عكاظ ، ليأخذوا مكانهم بين رؤساء
قريش وساداتها ، حتى طغى على الجميع صوت رهيب باهت ، مالبث
أن وضع وارتفع ، وإذا الناس يتزاحمون عليه بالمناكب من
كل صوب ! ! إنه صوت قس بن ساعدة ، ذلك الشاعر الحكيم الفحل ،
الذى جاء إلى السوق على جمه الأحمر ، يلقي على العرب في نواديهم
معنى جديدا لم يتعودوا الاستماع إليه قبل ذلك في هذه السوق . . ولم
يأبهوا لمثله في دنياهم الهاتجة المانحة ، التي لا تعرف غير اللذات
والشهوات . .

وأخذ قس يصب نثره وأشعاره من قلبه صبا ، وهو يقول :
- أيها الناس .. اجتمعوا ، ثم اسمعوا وعوا ، من عاش مات ومن
مات فات .. وكل ما هو آت آت ، يامعشر إباد .. أين ثمود وعاد
وأين الآباء والأجداد .. أين المعروف الذى لم يشكر ؟ وأين
الظلم الذى لم يشكر ؟؟ أقسم قس قسما حقا ، إن الله لدينا هو أَرْضِي
عنده من دينكم . . ثم أنشد يقول :

في الزاهبين الأولين من القرون لنا بهائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحونا يعضى الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقيين غابر
أقننت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر

وانتابت سيد بنى عبد شمس القشعريرة والرعدة مرة أخرى ..
فقد تذكر موت ولده الحبيب ، وتذكر مضيه هو الآخر نحو هذا الموت ؟
فما كان له من سبيل لقطع هذه المواجس والفكر ، إلا أن يأنس إلى
بنت الراح ، ليذهب بها عقله بعيداً عن التفكير في الموت .. وما بعده ..
فأخذ يعب منها ما استطاع ، حتى أنسته كل شيء ، كما أنست غيره من
سادة العرب وأوغادهم على حد سواء .

ويمر يوم عكاظ على عادته ، كما يمر غيره ، ليدعم أسس الجاهلية
التي تقوم عليها حياة العرب في مجامعهم .. فلا حياة إلا للذة ، لنق
البطن والفرج ، وما دون البطن والفرج .. وكلما مرت الأعوام ، كلما
تشككت اللذة في آفاق شتى ، حتى صارت قربان قريش إلى آلهة قريش ،
ورمز التسييح بحمد اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ..

ومن خلال تلك الظلمات المدلجة ، التي يتكاثف بعضها فوق بعض
بين يوم وآخر ، هن أوتار الوجرد لحن ملائكى ، فسمعت قريش
صوت محمد ﷺ ، من أعلا الصفا ، يناديها ويدعوها إلى عبادة الله
وحده لا شريك له .. ويبين لها معالم الحياة ونهايتها ، ويكشف لها عن
مصائرهما فيما بعد هذه الحياة .. من عذاب أليم لمن طغى وبغى ، ومن
نعيم مقيم لمن آمن وعمل صالحاً .. ولكن أنى لهذه القلوب الغليظة

التي ذابت في الشهوات ذوبان الملح في الماء، أن تعي وأن تعقل، وأن تدرك في ظلامها البهيم أن هذه الأصنام لن تغني عنها من الله شيئاً؟! واشتد عداؤهم سعيد بن العاص . . حتى لقد كان أعدى قريش لرسول الله ، وأعنفهم في مهاجمته وحربه . . فلقد كان الرجل يفكر ، كيف أن محمداً وهو في أعلا الذرى من قريش ، يجاهر بتلك العقيدة الخطيرة، لإخراج قريش عما كان يعبد آباؤها من قديم ؟ وكيف صار يسفه أحلامها ويسب آلهتها ، ويقوض بنيانها . . كي ينهار سلطانها وملكها تحت صخرة دينه الجديد ، الذي لا فضل فيه لأحد على أحد . . إلا بالتقوى . ١٠ ؟

وتدور الأيام . . ومحمد ﷺ يدعو في منعة من قومه بني عبد مناف . . وسيد بني عبد شمس دائب على عداوته وحربه ، ينكل بمن يستمع إلى الدين الجديد أيما تنكيل . . حتى لقد كان سيد بني شمس يسعى بأولاده جميعاً إلى حيث يقعد محمد ﷺ ، وسط حلقات القبائل في حجر الكعبة ، فيستمعون ، ثم يتكلمون ، ويتوعدون . . ومن ثم ينادون الجالوس بالانفضاض من حوله ، ويؤذون من يحب البقاء في حضرته من أغمار الناس . .

وتسرى روح خفية إلى بعض هؤلاء الأبناء . . فيتناقل في مكانه ، حينما أخذ أبوه ينادي ذات يوم بالانفضاض من حول غريم قريش وعدو آلهتها . . فكان كلما نادى الطاغية كلما ثبت هو في الأرض !! حتى لم يبق غيره ، وغير محمد ﷺ ، وبعد هنيئة ، قام هو الآخر يجر

رجليه بخطوات متثاقلة .. فلقد رأى الشر يتطير من وجه أبيه ، تخاف
أن يظنه قد صبا هو الآخر .. !!

ودخل السيد قصره بالظرية ذات مساء ، والتس أولاده السبعة
فوجدهم جميعا .. إلا كبيرهم خالد بن سعيد ، فسألهم عنه فوجموا ، وما
تحرك لهم لسان .. !!

(٢)

أخذ الظلام يقبل رويداً رويداً ، ليلف هذا القصر الهادىء
الجميل — قصر سيد بنى عبد شمس — بحلته الداكنة الرهيبة ، ولينشر
الهدوء المهيب من أعماقه ، فيغمر هذه الحدائق والمروج الخضراء ،
حاملاً معه ريح المسك تهب من داخل أبهائه الفسيحة .. حيث الحلقات
الناعمة فى أحضان اللذة والخمر والغناء .

وانتصف الليل .. وثقلت رأس السيد إيذاً نابطاً للراحة والنوم
العميق ، فقام يحمل جسده الثقيل على رجليه الخائرتين ، وأخذ
أبنائه يعاونونه على السير إلى مخدعه .. وكما كانت دهشته ألا يرى
ابنه الأكبر خالد بن سعيد بين كوكبة الأبناء .

لقد كان خالد متجهماً فى أول الليل ، حتى لقد كان إخوته
يتعجبون لأمره ، ويتساءلون بينهم عما طغى على كبيرهم من هم ثقيل ،
حبب إليه العزلة منذ أيام ، فهو لا يكاد يطيق مجلس خمر ولا غناء ،
بل لا يكاد يطيق الجلوس فى حلقة تجمع بينه وبين أبيه !! فكان يستقل
فى مكان داخل القصر الكبير ، ويتعلل بالتعب حيناً ، وبالمرض
حيناً آخر .. !!

وشملت القصر غمرة من السكون العميق .. فلا تكاد تسمع صوتا ولا همسا .. حتى الكلاب ، فإنها قد نامت هي الأخرى على بساط ذلك السكون ، فسكنت عن نباحها الذي كانت ترسله بين آن وآخر ، على إثر نغمة عالية ، أو صوت منكر ينبعث من نشوة مخور ؛ أو سكرة سكران .. وكأن كل هذا الهدوء نفسه كان بمثابة الطبل في رأس خالد بن سعيد ، فكان يزيد من أرقه ، في تلك الليلة ، ويقض مضجعه ويهدأ وصاله ، حتى لقد كان يقف خالد كالمجنون يسائل نفسه ، أهو نائم أم يقظان .. بل أهو حي أم ميت ؟ ! ومن ثم يقنع نفسه .. فيجهدا بالسير بضع خطوات يذرع بها الحجرة جيئة وذهابا ، وهو يحاذر من أن يحس به أحد من إخوته الستة ، المجندين في خندق نوم عميق ..

وتمر الساعات بطيئة ثقيلة ، لتغرق خالدا في بحار هائجة من التفكير في أمر محمد ﷺ ، وعداوة قريش له ، وتأليب أبيه سعيد عليه .. ثم يستبد به التفكير في أمر هذه الرسالة التي استطاع بها محمد الفرد أن يتحدى بها قريشا جميعها ، وأن يسفه أحلامها ، وأن يعيب آلهتها .. بل إن خالدا ليذكر هذا الكلام الحلو الجميل ، حينما كان ينصت في إمعان إلى ذلك الرسول الجديد ، حتى من خلال الضوضاء التي يحدثها طغاة مكة وصادتها ، كلما رأوا محمدا ﷺ في حلقة من حلقات العرب حول الكعبة .. هذا الكلام الحلو الجميل ، الذي تفتحت له جوانب نفسه ، فأخذ بمجامع قلبه ، وملك عليه أشتات عقله .. فصوره

أسير الحيرة وأسير الحب معا .. وأخيرا يمتد جسده المكبدود في تلك الليلة على سريريه ، ويغمض الكرى أجفانه ، فيجعله من فرط التعب بين النائم واليقظان .. وإذا به يرى نفسه من خلال تلك النازلة الغامرة ، وكأنه واقف على شفير نار لا حدود لها ولا آفاق ، ويرى أباه يدفع به إليها في قسوة بالغة ، ثم لا يلبث أن يسرع إليه رجل مهيب ، فيأخذ بحقوقه فلا يقع فيها .. وكان الرجل المهيب هو سيد نبي عبد مناف محمد رسول الله ..

ويقوم خالد من غفوته فزعاً مذعوراً ، يهرول في أرجاء الحجرة وهو يقول : « أحلف بالله إنها لرؤية حق ، اأثم يخرج هائماً في سكون الكون قبل الشروق ، متجهاً إلى منزل أبي بكر ، فيطرق بابه ويدخل .. ويراه أبو بكر ، فيهدى من روعه ، ويسأله الخبر .. فيجيبه بشكوك نفسه وآلامها .. ثم يقص عليه الرؤيا ، فيشرق وجه الصديق ويقول : أريد بك خير .. هذا رسول الله ﷺ فاتبعه ، فإنك ستبته ، وتدخل معه في الإسلام الذي يحجزك من أن تقع فيها .. وأبوك واقع فيها ..

ويخرج خالد من بيت أبي بكر ، ويتجه في سرعة إلى بيت رسول الله بأجياد ، فيدخل عليه مطأطئ الرأس ، ويقول :

— يا محمد .. إلى ما تدعو ؟؟

— إلى الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً رسول الله ، وخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع

ولا يدري من عبده من لم يعبده . .

وينتفض خالد انتفاضة يهتز لها جسده كله . . ويقول :

— فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله . .

واختفى خالد من الحياة الصاخبة المترفة في قصر أبيه ، بل ومن حياة مكة كلها . . وعاش في كنف الرسول في شعب من شعاب الجبل ، لا يعلم مكانه غير امرأة واحدة ، ورجلان ، وقتي . . خديجة زوج النبي ، وأبو بكر ، وزيد ، وعلى . . وقد كان هؤلاء هم كل المؤمنين برسالة النور في دنيا الناس جميعا . .

وعلم سيد بني عبد شمس بالنبأ العظيم ، فكاد أن يفقد رشده . . وصار كالأسد الهائج في عرينه ، لا يقر له قرار . . ونادى أبناءه فأقبلوا على الفور ، ووقفوا أمامه وجلين خاشعين ، فأمرهم بإحضار أخيه خالد على الفور . . ولو كان في برج من أبراج السماء !!

وأمام الشعب المظلم في بطن الجبل ، حيث تستقر رسالة النور في أعماق أولئك الأربعة من خلف رسول الله ﷺ ، وقف أبناء سيد بني شمس ، ومعهم مولاهم رافع ، في حيرة من أمرهم . . لقد أخذوا يستمعون هم الآخرون إلى رسول الله خارج الشعب ، وقد أخذتهم هبة الحديث . . فلما سكث الرسول ، أمر الأبناء رافعا أن يتقدم من باب الشعب ، وأن ينادي خالدا ففعل . .

وخرج خالد إليهم بأمر رسول الله ، فأخبروه أن أباه قد صار

من الموت على بعد خطوة . . وأنه يود رؤيته وهو في الرمي الأخير . .
فسار معهم ، حتى إذا ما دخل القصر الرهيب ألقي أباه كالوحش
الكاسر يزجر ، وكأنه في انتظار فريسة يرد بها جوعته . . فما كاد يراه
حتى هجم عليه في عنف وشدة ، وصار يضربه بمقرعة في يده ، حتى
شج رأسه ، فأخذ دمه يتفجر منه أنهارا . .

وأخذ التعب من سيد بني عبد شمس كل مأخذ ، فاستسلم إلى
حمير على الأرض ، وأخذ يقذف ولده بالسباب قذفا شديدا ، والإبن
صابر محتسب ، ثم قال :

- اتبعت محمدا ، وأنت ترى خلافه قومه وما جاء به من عيب آلهم
وعيب من مضى من آبائهم ؟

فأجابه خالد وهو يمسح دماؤه ، فقال :

- قد صدق الله واتبعته . .

وثارت الدماء حارة في عروق سيد بني عبد شمس مرة أخرى
فأخذ يكيل لولده على مرآى من أبنائه اللكمات والمطبات ، ثم قال :

- اذهب بالكع حيث شئت ، فواللات والعزى لا منعك القوت . .

ونظر خالد إلى أبيه نظرة ساخرة ، وقال :

- إن منعتني ، فإن الله يرزقني ما أعيش به !!

ونزلت هذه الكلمات على قلب سيد بني عبد شمس نزول الصاعقة ،

فصاح في أولاده أن يخرجوه . . ثم قال لهم :

- لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت به . .

وعاد خالد إلى رسول الله قريش العيين هادىء البال .. فاقم ذهن أن أباه لن يتعرض له بسوء بعد ذلك ، نظير أن يحرمه من المال والعيش وقد صار أمر المال والعيش يسيرا على مثل خالد ، بعد أن استقر في أعماقه نور اليقين ، فباع الحياة المترفة ابتغاء مرضاة الله ورسوله ..

ومضت أشهر ، امتلأ من خلالها صدر السيد القرشي بالحقد على ولده ، فما استطاع أن يتحمل بقاء هذا الولد حيا يثير في أعماقه معاني الانكسار أمام قريش وساداتها ، فدعا أولاده ومواليه ، وطلب إليهم أن يحضروه في السلاسل ، فأحضروه .. ثم حبسه الشهور الطوال ، فلم يهن ولم يضعف .. ومن ثم أخذ يمنعه الطعام والماء ثلاثا ثلاثا ، فما تألم وما استكان .. عند ذلك أعاده للسجن مرة أخرى ، ولكن خالدا تلمس السيل للفرار ، ففر حيث اختفى في بعض نواحي مكة .

واشتد إيذاء المشركين لأصحاب رسول الله والمؤمنين بدعوته ، وقد زاد عددهم واستشرى خطرهم على قريش وآلهتها .. وأذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، لعلمهم أن يجدوا في هذه الأرض النائية نسima من الحرية والهدوء ، فهاجروا أفواجا أفواجا ، وما كادوا يستقرون فيها شهورا ، حتى بعثت قريش في طلبهم ، فأعاد الكثير منهم تحت تأثير الخديعة ، فصبت عليهم جام غضبها وشديد بطشها .

وجاءت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، فخرج خالد مع بعض أصحاب رسول الله في جنح الظلام يصحب زوجه إليها .. وسار معهم رسول الله ساعة يوصيهم ويرشدهم ، ثم ودعهم على بركة الله ..

وعلم سيد بنى عبد شمس بهجرة ولده ، فعبس وجهه ، واضطربت
أوصاله ، وشعر بكبريائه تنهار ، وهو ذو التاج ، وصاحب العمامة
الكبرى التى أخذ أهل مكة على أنفسهم ألا يعتموا بلونها إجلالا
للسيد وتعظيما . . ثم مالبت أن هذه المرض ، فلزم داره لا يخرج منها
إلا تحت الضغط الشديد . . ضغط الظروف التى تفرض على سادة
العرب أن يخرجوا لألهتهم بين حين وحين ، ولو كانوا على
يساط الموت . .

وما ذا بعد أن رأى السيد القرشى انتصار ولده عليه ، وتحديه له
وسخريته منه ، على ملاء القرشيين ؟ بل بعد أن رأى بعض أبنائه
الآخرين يدافعون عن أخيهم خالد ، ويظهرون أسفهم لفعل أبيه
معه ؛ حتى لقد كانت الثورة تستبد بعمر وبن سعيد فى بعض الأحيان ،
فيجرى على لسانه سب قريش وآلهة قريش من أجل أخيه . . فلما
رأى أبوه منه ذلك ذات مرة أقسم فقال :

- لا اعتزلن فى مالى ، لا أسمع شتم آبائى ولا عيب آلهتى ، وهو
أحب إلى من القيام مع هؤلاء الصباه . .

بل إن سيد بنى عبد شمس ، حينما هدد أبنائه ، حين أظهر
بعضهم العطف على خالد ، لم يكن يدري أن دعوة الله قد أخذت على
ولده عمرو كل مأخذ ، وجعلته يهيم برسول الله أشد الهيام ، كما كان
يفعل خالد تماما . . إنه رأى الإيمان ينبثق من هذه القلوب المؤمنة ،
فيرسل فى ظلام الحياة نورا ساطعا من اليقين والاعتداد والصبر

والجلاد .. فاستقرت في أعماقه معاني الخلود ، فأمن بدعوة الله
وإن كان لا يزال يخفى عن أييه وإخوته أمره .. خوفا على صحة
الآب ، وطمعا في هدايته .. فإنه لو أسلم لأسلم من خلفه بنو عبد
شمس جميعا .. بل إن عمرووا ليعلم أن أباه يحبه أشد الحب ، وينزله من
قلبه مكانا ليس لإخوته جميعا ، حتى لقد كان يقول فيه :

ألا ليت شعري عنك يا عمرو سائلا

إذا شب واشتدت يداه وسلا

أترك أمر القوم فيه بلا بل

وتكشف غيظا كان في الصدر موجما

يعلم عمرو كل هذا ، ولكن الرسول قد صار أحب إليه من كل
شيء ، من الآب والأم ، والمال والمتاع ، والعشيرة والولد .. فما لبث
أن أعلن إسلامه ، وطلق حياة الترف ، ولحق بخالد بأرض
الحبشة .. وأرسل من الطريق كتابا إلى أبيه يعلنه بأمره .

وتأخذ سيد بني عبد شمس هزة قاتلة ، ويستبد به الحقد على
رسول الله أيما استبداد .. فيقول وهو على بساط مرضه الشديد :
- لئن رفعني الله من مرضي هذا ، لا يعبد إله ابن أبي كبشة
يبطن مكة !!

ويعلم خالد وهو في مهاجرة بأرض الحبشة بقول أبيه ،
فيضرع إلى ربه ألا يرفعه من مرضه ..

وينفذ الدعاء الطاهر إلى عنان السماء ، فتفسح له يد القدرة طريقه

القبول . . فيموت سيد بن عبد شمس مغموصاً ، ويمضى إلى جهنم خالداً فيها . .

(٣)

مات سيد بن عبد شمس فبكته قريش أشد البكاء ، فلقد فقدت به أعظم لواء قام لمحاربة محمد ﷺ والذين آمنوا معه . . ولكنها لما لبثت أن رأت عوصها في ابنه إبان بن سعيد بن العاص ، وقد جلس في مكان الصدارة من قومه بعد أبيه . . وأخذ يواصل أذاه للمسلمين وتنكيله بهم ، ويبالغ في القسوة عليهم ، ليكون في ذلك العبرة الصارخة لمن يتبع سبيلهم . . وكأن إبان قد ورث عن أبيه - بجوار ذلك الجاه العظيم - تلك الغصة القاتلة ، التي أودت بحياته حين رأى ولديه خالد بن سعيد وعمر بن سعيد ، يتحدياناه الواحد بعد الآخر ، فيعلنان إسلامهما ويطلقان النعيم والثروة والجاه ، ثم يهاجران إلى أرض الحبشة خالي الوفاض فرارا من الأذى ، وخوفا من الفتنة . . فكان هم السيد الجديد الشاب أن يؤلب من بقي من إخوته على محمد ﷺ ، والذين آمنوا معه ، وأن ينفث فيهم نار الحقد والبغضاء عليهم .

وتمر الشهور الطوال فلا يرى القرشيون من المسلمين غير الإيمان والثبات . . ومن ثم تتحطم هذه الجهود الهائلة من الأذى والاضطهاد ، على صخرة العقيدة الراسخة في قلوب المؤمنين . . وينظر الحكم بن سعيد إلى فعال أخيه إبان من خلال الحرب

المستعرة بين عبدة اللات وعباد الله ، فتأخذه الشفقة بأنباع محمد ﷺ ويغمره الإعجاب بصبرهم واحتياهم ، فيبدأ يفكر في أمرهم طويلاً .. ثم تأخذه العبرة فيضعف عن مقاومة الحنين إلى رسول الله والإقبال على الدين الجديد . . . ! !

وفي جنح ليل بهم ، غادر الحكم ديار بني عبد شمس ، وأخذ يذرع الطريق مسرعاً إلى بيت الرسول الأعظم ، وهو يحرص على ألا يراه أحد من أولئك الرصد الذين بثتهم قریش على قارعة كل سبيل في مكة ، ليحولوا بين محمد ﷺ وبين العرب . . خاصة بعد أن أذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى المدينة ، فبدأوا يهاجرون في الحفاة جماعات وأفراداً .. وما أن وصل الدار المهيبة حتى دق بابها بيد مرتعشة ، وقلب واجف خاشع . . .

وانفرج الباب .. وقد أشرق من خلفه وجه رسول الله وهو ينظر إلى الطارق الغريب في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ويقول :
- ما اسمك ؟ ؟

ويطأ طيء الرجل رأسه هيبه وإجلالا ، وهو يحيب رسول الله ويقول بصوت منخفض باهت :

- الحكم بن سعيده ! !

ويحس رسول الله بالفرح يملأ قلبه ، وقد رأى الإيمان يشع في جبين الرجل ، فأخذ يمسح صدره ويربت عليه ، ثم قال :
- بل أنت عبد الله ..

ويأخذ الحنين رسول الله وهو ينظر إلى عبد الله فيذكر أخويه خالدا وعمر وا في مهاجرهما ويدعو لهما بالخير . . ومن ثم تنتساب عبد الله قشعريرة الشوق إلى الهجرة في سبيل الله هو الآخر ، ويتمنى لو أذن له الرسول باللاحاق بأخويه !!

ويحس رسول الله بأمره ، فيأذن له بالهجرة إلى المدينة ، واللاحاق بالمهاجرين هناك . . ثم يأمره أن يتولى تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، ويرسل معه كتابا بذلك ..

وتمضى أيام يغادر رسول الله ﷺ بعدها مكة إلى المدينة مع صاحبه الصديق ، بعد أن اطمأن على سلامة أصحابه في الهجرة . . ثم يعكف ﷺ على إقامة صرح الآخرة بين المهاجرين والأنصار ، فيقسم الأنصار أموالهم وديارهم بينهم وبين المهاجرين ، عن طيب خاطر . . وتسرع عجلة الزمان في دورانها لتمهد للرسول وأصحابه سبيل القوة والاستقرار . . وتمر سنة وبعض سنة ، والمسلمون من خلالها يتحرقون على لظى الشوق إلى قتال قريش ، دون أن يأذن لهم رسول الله . . حتى نزل قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور ،

ومضت بضعة أشهر أخرى.. ونادى رسول الله ﷺ أصحابه للخروج إلى بدر ، فأكمل عدادهم عندها ثلاثمائة وأربعة عشر ، لا يملكون إلا السيوف في القرب وهي عدة المسافر . . فقد كانوا لا يتوقعون حرباً ولا شبه حرب ، وإنما كانوا يرغبون في الاستيلاء على غير لابي سفيان تحمل بضاعة إلى قريش من الشام . . ثم يعودون إلى المدينة بسلام وقد استردوا بعض حقوقهم وأموالهم التي أخرجهم منها طغاة قريش ظلماً وعدواناً . . ويشاء الله أن يجعل بدرأ ميداناً لا خطر معركة سطرها التاريخ على وجه الأرض ، وأن يرسل لعبد اللات من خلالها أضواء ساطعة على الحقيقة الأبدية ، ليعلموا أن وراء الوجود سلطان قاهره وخالقه ، يعز من يشاء ولو كانوا حفنة ذابالة ، وبذل من يشاء ولو كانوا أهل الأرض جميعاً.. وأن العاقبة للمعتقين . .

ودارت المعركة الرهيبة ، وبرز في صفوف القرشيين الأولى عظماء القبائل ، ومن بينهم أبناء سيد بنى عبد شمس الأربعة الذين لم يسلوا بعد ، يتوسطهم كبيرهم إبان بن سعيد سيد قومه ، وحامل لواء العداوة لرسول الله ﷺ بعد أبيه ، وقد دججوا أنفسهم بالحديد فلا ترى إلا عيونهم . . والتحم الفريقان ، وذاب المسلمون العزل في كثرة أعدائهم ، وقد فاقت الآلاف عدداً . . ووفرة أسلحتهم وعتادهم وخيلهم ، وقد فاقمت أعظم عدة لجيش دب بقدمه على أرض الجزيرة من قبل . . وتحكمت كلمة الإيمان في الميدان الرهيب ، فأخذت سيوف المسلمين تحصد رقاب أعدائهم حصداً ، تؤازرها

ملائكة السماء يضربون الكافرين فوق الأعناق ويضربون منهم كل بنان..
وينظر أشراف مكة بعضهم إلى بعض ، وقد طوقهم المسلمون
من كل جانب ؛ فلا يستطيعون الفرار من الموت أو الأسر إلا قليلا..
ويتقدم إبان بن العاص وإخوته ليزودوا عن أرواحهم ، فتناولهم
سهام المسلمين من كل مكان دون أن تصيبهم بأذى لاكتسائهم
بالحديد ، ويتقدم سيف من سيوف الله إلى العاص بن سعيد ، فيطعنه
في عنقه فيفصل رقبته عن جسده .. فيهب إخوته من حوله ، فيلقاهم
الزبير بن العوام فارس رسول الله ، فيسخر منهم على ملاقرش ، ثم
ينزع سهام كنانته ، وينظر إلى عبدة بن سعيد وقد دخل كبله في
الحديد لا ترى منه إلا عين واحدة ، ويستغرق في الضحك لخرابة
المنظر .. ثم يمسك بلجام فرسه بيده اليسرى ويقذف بالسهم قاصداً
فقاً هذه العين ، وهو يقول : « خذها يا أبا ذات الكرش ، فيستقر
السهم فيها وينشئ طرفه المدبب عند مؤخرة رأسه من شدة الطعنة ،
فيموت عبدة لساعته .. »

وتنجلي المحركة عن هزيمة قريش ، وقتل ساداتها .. ويعود إبان
ابن سعيد وأخوه سعيد إلى مكة مفجوعين ، وقد امتلأ قلب إبان
بالحقد على رسول الله والمسلمين بأضعاف أضعاف ما كان فيه .
وماذا بعد أن رأى السيد الشاب أن الدنيا قد بدأت تسير في
ركاب رسول الإسلام طوعاً وكرها .. حتى لقد أذات له أعناق
السادة من قريش حين أرادوا القضاء عليه في خيالاتهم وغرهم في
ساعة من نهار ١١٠٠٠

بل ماذا بعد أن رأى السيد الشاب أن أعظم قوة كانت تتمتع بها دار أبيه سيد بني عبد شمس لقيادة بني عبد شمس جميعا ، والعرب من ورائهم .. قد انهارت على صخرة الإسلام ، فأسلم خالد وعمر والحكم ، وقتل العاص وعبيدة .. وبقي هو وأخوه سعيد للمقادير ..

(٤)

طغى على مكة طوفان من الانكسار ، لم تشهد مثله قط في موطن من المواطن ، وشملت أحيائها موجات هائلة من الحزن العميق ، أخرجتها عن مألوف عاداتها في احتمال المصائب والتزود منها ، لاسترداد مكانها واعتبارها بين العرب .. فلقد كانت موقعة بدر صدمة كبرى أذهلتها عن كل شيء ، حتى عن الأمل في بعث الروح التي خارت في قلوب طغاتها وصناديدها ، فهي لم تكن تتوقع أن ثلاثمائة من المسلمين المطرودين بالأمس ، والمشردين في الآفاق .. يستطيعون الصمود ساعة من نهار ، أمام ألف من رجالها الأشداء في عدتهم وسطوتهم .. حتى فاجأها القدر بما لم يكن في حسابها أبدا .. فإذا القلة العزلاء تصحن الجيش الجرار صحنًا ، وتذك أركانها دكا ، وإذا آلهة البشر تتحطم رموسها تحت أقدام محمد ﷺ ، والذين آمنوا معه ..

وتتجمع المأساة في ثوبها الداكن ، قتلف دار سيد بني عبد شمس برداء من الذلة والمسكنة ، وتجعلها كالقبر الموحش يضم بين جوانحه ذكريات مجد أثيل ، وأطلال سلطان عريض ..

ألم تكن هذه الدار من قبل كعبة لسادة قريش ، يتوافدون عليها كلها حز بهم أمر ، أو ألم بهم خطب ؟ ! وهناك تنقرر الكلمة النافذة على لسان صاحبها ، ذى التاج ، سعيد بن العاص بن أمية ، صاحب العمامة الكبرى التى أخذ أهل مكة على أنفسهم ألا يعتصموا بلونها إجلالا له وتعظيما ؟ ؟

ألم تكن هذه الدار من قبل مركز القيادة لحرب محمد ﷺ ، والمؤمنين برسالته ، حيث يتربع السيد القرشى على عرش الدفاع عن الآلهة الصماء ، ومن ورائه أبناؤه السبعة الأقوياء يتقدمون صفوف بنى عبد شمس ، ويتزعمون الشباب القرشى كله فى حركة التشكيل بالمسلمين ؟ ؟

ألم تكن هذه الدار فوق ذلك وذلك ، ميدانا للنعيم المترف ، ومنتدى للحلقات الناعمة فى أحضان اللذة والخمر والغناء . . ؟ ؟
فما بالها اليوم صامته مظلمة ؟ ؟ وما بال سلطانها اليوم متحطم منهار ؟ ؟ وما بال أصوات النغم العذب قد حلت محلها أصوات النوائح والشكالى . ؟ ؟

أين السيد العظيم الخطر ؟ ؟ إنه صار أحدىثة للزمن ، تنطق بأن سلطان الدنيا وإن عظم ، لا يقوى على صد المؤمنين عن منبع النور . . وهكذا عجز ذو التاج ، حتى عن صد ولديه خالد وعمرو عن دين الله ، والهجرة إلى الحبشة . . فمات من فرط الكمد مغموصا ۱۱
وأين ولى عهده إبان بن سعيد الذى أخذ على نفسه - وقد صار

حوارث المجد في بني عبد شمس - أن يروى غلة أبيه في لحدّه ، وأن ينتقم لجاهه العظيم بالتكيل بأصحاب محمد ﷺ . . وأن يحفظ لهذه الدار هيبتها في قريش ؟؟ إنه اليوم يحني ثمرة بطشه هو الآخر مرا وعلقها ، ويتجرع كنوس ظلمه غصصا وآلاما . . فلقد أسلم أخوه الحكم على الرغم من كل شيء ، وهاجر إلى المدينة . . حتى إذا ما كان يوم بدر كان في عداد جند الله خاف محمد ﷺ ، فأذاق القرشيين وطغاتهم كنوسا مرة من القتل والجراح والأسر . . ثم كان ما كان من قتل أخويه العاص وعبيدة ، وانهيار سلطان بني عبد شمس مع سلطان قريش كلها . . ذلك الانهيار الذريع ، الذي لن تقوم بعده لدار سيد بني عبد شمس قائمة أبدا . . فقد أسلم من رجالها السبعة الأقوياء ثلاثة ، وهلك رجلان ، وبقي رجلان للمقادير . . هما إبان نفسه ، وأخوه سعيد . .

• • •

ومن خلال تلك المحنة القاسية لم يستطع إبان أن يبرح داره الحزينة من فرط الحزى والعار . . فلقد تخيل أن الهزيمة الكبرى قد لحقت قريشا حين صار هو حامل لواء العداوة لأعداء اللات والعزى في قريش بعد أبيه . . بل حين صار يعلن أنه قد نذر حياته للقضاء على دعوة محمد ﷺ ، ومن آمن بها ، شريفا كان أم من الأغمار . .

وتمر الشهور والأعوام . . وتمضى قريش في حرب رسول الله

ويخرج في صفوفها إبان وأخوه في كل ملحمة . . حتى إذا كان يوم الأحزاب ، خرج العرب وأحايشهم من شتى بقاع الجزيرة في عشرة آلاف مقاتل ، على قلب رجل واحد ، تريد دولة اليهود في كل مكان . . فحاصروا المسلمين بالمدينة - ولم يزد عددهم عن ثلاثة آلاف - ورموهم عن قوس واحدة ، وكالبوهم من كل جانب !! ويشاء الله أن يبعث آية من آياته لنصرة رسوله في ساعة العسرة ، لتكون درسا لأعدائه من جبابرة الأرض ، عساهم أن يدركوا أن الذي بعثه بالحق بشيرا ونذيرا ، قادر على أن ينصره ولو كان أعداؤه ملء الأرض ، وكان بعضهم لبعض ظهيرا . . فأرسل الريح صرصرا عاتية ، تقتلع خيامهم ، وتقلب قدورهم ، وتطفى نيرانهم وتغشى أبصارهم ، وتملأ بالرعب قلوبهم ، وتنتشر بين صفوفهم الفرع والخوف والرهبة . . فيسارعون بالفرار قبل أن يقر لهم قرار ، ويضربون في البيداء المظلمة بأرجل مسرعة لا يلوون على شيء ، ويعودون من حيث أتوا مدحورين مهزومين . . ثم لا يلبث الرسول فور انسحاب الأحزاب أن ينزل النكال بأعدائه يهود بني قريظة فيما يلي المدينة ، وقد نقضوا عهده بانحيازهم إلى الجيش الجرار ، فيبيد منهم الوجود جزاء . . يافا . . ليكون حديثهم عبرة لمن خلفهم من أعداء الله ورسوله . . وينتهي القرشيون إلى مكة مطأطئي الرؤوس ، لا يكاد أحدهم ينظر إلى صاحبه حتى يتملكه الحزى ، فينتكس رأسه نحو الأرض من جديد . . ويستقر إبان وأخوه سعيد في دارهما الحزينة فيطيلان

البقاء فيها أيا ما دون أن يخرجوا !! فلقد تجددت أحزانها فصارا
كالأسيرين في سجن رهيب ..

وببدأ إبان يفكر في أمر محمد ﷺ وأصحابه ، وقد استشرى
خطرهم وعظم أمرهم .. وينتقل به الفـكـر إلى تذكر إخوته وقد
تفرقوا في سبيل محمد ﷺ في كل مكان . . . ففي الحبشة أخواه خالد
وعمر ، وفي المدينة الحكم أو عبدالله كما يسميه المسلمون . . . إنه ليعلم في
هؤلاء الإخوة العقل الراجح والرأى السديد . . . فما كانوا ليؤمنوا
بمحمد ﷺ لو كان ساحرا أو مجنونا أو كذابا ، وما كان يؤمن
به غيرهم من سادة العرب لو كان كذلك . . . بل إنه قد رأى بعيني
رأسه كيف يلتف أصحاب محمد ﷺ حوله التفاف السوار بالمعصم
ويفقدونه بأرواحهم وأموالهم وأولادهم ، وكل عزيز لديهم . . . بل
إنه فوق ذلك بدأ يتلقى من إخوته الكتب من مهجرهم ، يناشدونه
فيها الله والإسلام ، وخلع رداء الجاهلية ، وترك عبادة الأوثان . . .
والنجاة بنفسه من خزي الدنيا وعذاب الآخرة . . .

وتمضى الأيام والليالي ثقيلة بطيئة ، فتغرقه في بحار لاساحل لها من
الفكر والحيرة ، ويطول به القلق والوجوم ، ويستبد به الأرق
والسهاد . . . فلا يجد مخرجا من ضيقه إلا أن يشغل نفسه بالتجارة
والتنقل من بلد إلى بلد في أرض الله الواسعة فيما بين مكة والشام !

وبينما كان إبان على رأس قافلة فيها عير لقريش ، تحمل تجارة إلى

فلسطين ذات مرة ، إذ أناخ الركب إلى جوار دير منعزل يلتبس
الراحة والماء . . ونامت القافلة جميعها ، وبقي هو أرقا لا يدرى لأرقه
سببا ، فأخذ يضرب في اليبداء الهادئة يمينا وشمالا تحت ضوء القمر
الباهت ، وظل يستعيد بذاكرته ذلك التاريخ الطويل الذي سطره
محمد ﷺ وأصحابه في تاريخ الدنيا ، ويفكر في أمر هذا السر
العجيب الذي صار يجذب إلى ابن عبدالله هذه الخلائق بلا حساب . .
حتى إذا ما أخذ منه التعب كل مأخذ ، عاد أدراجه إلى مناخ الإبل
فما كاد يصل إليه حتى رأى ضوء فتيل ضئيل يتحرك بين يدي شيخ
وقور أمام باب الدير . . ولم يلبث إبان أن عرف فيه راهب هذه
البيعة الصغيرة . . فأحب أن يأنس إليه ويجتمع به ، لعله أن يجد
عنده شفاء لما يحتل نفسه من وساوس ومخاوف وأشجان . . فإنه
كثيرا ما سمع أن هؤلاء الرهبان ليعلمون عن هذه الأمور الشيء
الكثير . .

واقرب إبان من الراهب حياه . . والتبس عنده المجلس قليلا ،
فأذن له بالجلوس معه خارج الصومعة . . ثم سأله عن حاجة فقال :
- إني رجل من قريش ، وإن رجلا منا خرج فينا يزعم أنه
رسول الله ، أرسله مثل ما أرسل موسى وعيسى . .

- وارتعد الراهب ، وأخذ ينظر في عمق إلى إبان ، ومال به
أن قال

- ما اسم صاحبكم ؟ ؟

فأجابه إبان في سرعة وقال :

- محمد .

فانطلق لسان الراهب ، وقد أشرق وجهه ، فقال :

- فإني أصفه لك . .

وظل يعدد صفات النبي صفة صفة ، وإبان يؤمن على قوله

حتى إذا ما انتهى الراهب من حديثه ، صاح إبان وقال :

- هو والله كذلك . ! !

فقاطعه الراهب ، وقد تجمعت في وجهه علامات اليقين

والرهبة ، وقال :

- والله ليظهرن على الأرض .. يا بني ، اقرأ على الرجل الصالح السلام ..

ثم قام وهو يحمش بالبهكاء ، وتركه وعاد إلى صومعته ! !

وتماسكت إبان عوامل خفية ، لم يدر مصدرها ولم يستطع إزائها

النوم لحظة ، حتى إذا ما جن عليه الليل ، نادى في العير بالرحيل

إلى مكة . .

وما أن دخل البلد الحرام ، حتى فوجيء بقدوم المسلمين خلف

محمد ﷺ لدخول مكة حاجين عام الحديبية . . وكان ما كان من

أمر امتناع قريش عن السماح لهم . . وإرسال رسول الله عثمان بن

عفان إلى القرشيين ليفاوضهم في أمر الدخول ، فما كان من إبان

إلا أن أعلن على الملأ جواره وحمايته لعثمان ، وقد كان الملأ يأمرونه

به ليقتلوه . ! !

وعجبت قريش من أمر إبان ، وذهلت من مسألكه الغريب ، وهو
يحمل عثمان على فرسه ، ويقول له :

- اسلك من مكة حيث شئت آمنا . . .

ثم ذهب به إلى الكعبة ليطوف بها ، فما كان من عثمان إلا أن امتنع
وقال : « ما كنت لأفعل حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ، ! ومن
ثم خرج به وقد أسر إليه أمرا . . . وعند مخرج مكة ودعه في حرارة
بعد أن اطمأن عليه من غوائل الطريق للحاق برسول الله . . .

وما كاد عثمان يدخل المدينة على رسول الله ﷺ بين التهليل والتكبير
حتى كان إبان من ورائه يذرع الصحراء لحاقا به . . . وم كانت دهشة
المسلمين بالمسجد ، حين رأوا فارس بني عبد شمس بينهم ، يشق
طريقه إلى النبي ، ويقبل الأرض بين قدميه ، ويعلن إسلامه لله
رب العالمين . . .

(٥)

ارتاع القرشيون لإسلام قتي عبد شمس وفارسها ، وهجرته
بجأة خلف عثمان بن عفان إلى المدينة ، لحاقا برسول الله ، فور يوم
الحديبية . . . فلقد كانوا يرون أن إبان بن سعيد آخر من يلقى السلاح
ضد المسلمين ، فهو الذي كان بالأمس يتزعم حركة الشباب القرشي
للقضاء على الإسلام والفتك بأهله أشد الفتك . . . وم كانوا يرجون
وصوله من الشام على رأس قافلته ، حينما صبحهم رسول الله ﷺ
لدخول مكة معتمرا على رأس ثلاثة آلاف من أصحابه المهاجرين

والانصار فنعوه .. كم كانوا يرجون وصوله ليروي غلتهم ، وليشفي صدورهم من محمد ﷺ ، والذين آمنوا معه ، حتى فوجئوا بوصوله على غير موعد ، فإذا هو على غير ما عهدوه من قبل .. فلقد أوى إليه رسول محمد ﷺ عثمان بن عفان ، وأمنه من قريش كلها ، ثم أخرجته من مكة سالما ليعود إلى المدينة .. وما لبث أن اختفى هو الآخر !!

وخيم الأسى على دار سيد بنى عبد شمس ، بعد هجرة فتاها العظيم إبان .. وبقاء أخيه الأصغر سعيد بن سعيد ، يتجرع وحده كنوس الحسرة تحت أثقال هذا المجد العريض الذي انهار على رأسه فجأة .. وجعل من حياته الباكية أحدوثة لقريش ، يضربون بها المثل في الذل بعد العزة ، وفي الضعف بعد القوة ، وفي القلة بعد الكثرة ، وفي الخراب الموحش بعد النعيم الزاهر في رحاب الجاه والسلطان .. حتى لقد صار اسم سعيد ، رمزا على الشقاء ، بعد أن كان مبعثا للهيبة والخوف في حياة السيد الكبير ، ذى التاج ، صاحب العمامة الكبرى ، التي أخذ أهل مكة على أنفسهم من قبل ألا يعتمدوا بلونها لإجلالا وتعظيما !!

وحق للأسى أن يخيم ، بعد أن تبدد من الدار الكبيرة ظل ستة إخوة كانوا بجوار سعيد الأصغر ، كالغرة الناصعة في جبين الشباب القوي ، فأسلم منهم أربعة لله ، وتركوا مكة فرارا بدينهم في أقاصى الأرض فيما بين الحبشة والمدينة ، ومات اثنان في معركة الباطل دفاعا

عن اللات والعزى . . . وبقي سعيد وحده ، يحمل أثقال الحياة
وآلام الوحدة ، وأحزان الذكريات . . .

ومرت الأيام لتؤكد للقرشيين أن عهدهم الظالم مع رسول
الإسلام يوم الحديبية ، لن يحد من قوته ، ولن يضعف من شوكته ،
ولن يحول بين دعوته وبين قلوب أهل مكة ، رغم الحصار المضروب
حول كل بيت ، وحول كل فرد ، ورغم صد المؤمنين برسالة
التوحيد عن الهجرة بقوة السيف . . . وها هي اليوم تسمع عن قادة
شبابها بالأمس أنهم يخترقون الحصار الرهيب واحدا بعد الآخر ،
سعيًا إلى رسول الله . . . بعد أن رأوا إبان بن سعيد نفسه قد آمن
 برسالة التوحيد ، وسار في صفوف المسلمين لحرب أعدائهم ، بعد
أن كان حربًا عليهم . . . بل بعد أن سمعوا أن الرسول قد كرمه
بوقربه ، ووضعه أميرا على رأس سرية من أصحابه إلى نجد ، فأدى
المهمة على خير وجه ، وعاد بجند الله منصورا . . .

وخرج رسول الله ﷺ إلى خيبر بأصحابه - وفيهم إبان وعبد
الله ابننا سعيد بن العاص - لحرب يهود في آخر معاركهم وأعظم
حصونهم ، وتم له النصر والغلبة ، وأورثه الله أرضهم وديارهم
وأموالهم نافلة للمسلمين . . . وبينما هو متأهب للعودة إلى المدينة ، إذ
فاجأه مهاجرو الحبشة بعودتهم ، بعد أن قضوا فيها زهاء عشرين
عاما ، ذاقوا فيها مرارة الغربة وشظف العيش ، ابتغاء مرضاة الله ،

وفيهم خالد وعمر و ابننا سعيد بن العاص .. فكبر المسلمون وهللوا ،
وقد تزايد فرحهم وتضاعف سرورهم .. وبرزت من خلال تلكم
اللمحظات العلوية آية من آيات الإيمان بهرت أصحاب محمد ﷺ ،
حين رأوا أبناء سيد بني عبد شمس الأربعة ، يجتمعون بعد طول
فراق حول الرسول الأعظم ، معلنين كلية الوفاء الخالص من قلوب
ملؤها الحب يقينا وتسليما .. ولم يلبث المسلمون أن يستمعوا إلى
خالد وهو يبكي ويقول :

- يا رسول الله ، لم نشهد معك بدرا ..

فيجيبه الرسول في حنان غامر ، فيقول :

- يا خالد ، أو ما ترضى أن يكون للناس هجرة ، ولكم هجرتان ؟

وعاد الرسول إلى المدينة ، وعاد معه من عاد من أصحابه ، وفيهم
أبناء سيد بني عبد شمس الأربعة .. ولم تمض شهور ، حتى هاجر
إليهم سعيد بن سعيد بن العاص هو الآخر ، بعد أن أعيته الحيل
مرات ومرات .. فأسلم وجهه لله ورسوله مؤمنا صادقا .. فاكتمل
العقد الكريم بين الأخوة الخمسة في ساحة التوحيد ..

وأذن الله لرسوله بفتح مكة ، في عمرة القضاء ، فخرجت كتائب
الرحمن كتيبة كتيبة في أعظم جيش محمدى دب بقدمه على أرض
الجزيرة .. وكان أبناء سيد بني عبد شمس في الكتيبة الخضراء مع
المهاجرين والأنصار ، في مقدمة الجيش خلف رسول الله ﷺ ..

وجاء نصر الله والفتح . . واستسلم القرشيون وأحنوا رءوسهم
ذلة وانكسارا ، وهم يطلبون العفو والأمان لأنفسهم في مساحة
البيت الحرام ، فأمنهم الرسول وعفا عنهم .

وشاء سيد العرب ﷺ أن يكرم أبناء سيد بنى عبد شمس بين
أهل مكة ، فاستعمل سعيدا على سوق مكة . . حتى إذا ما خرج
ﷺ إلى حنين والطائف لقتال أعداء الله ، أبي الإخوة الخمسة إلا
الخروج معه ، فأبلوا أصدق البلاء . . ولما اشتد بأس الكفار في
الطائف بعد حنين ، تقدم أبناء سيد بنى عبد شمس صفوف المسلمين
حتى كتب الله لرسوله النصر . . وهناك سطروا الصفحة الأولى من
صفحات الفداء ، غر سعيد في ميدان الشرف شهيدا . .

ورجع رسول الله إلى المدينة ، فكان أبناء سيد بنى عبد شمس
في ركابه ، وقد أبوا أن يبقوا بعيدا عنه بمكة . .

وشاء ﷺ أن يكرمهم ، فاتخذ خالدا كاتبه وحواريه ، فكتب
له كتاب أهل الطائف لو قد ثقيف ، بعد أن مشى بالصلح بينهم وبين
رسول الله . . حتى إذا ما سار ﷺ إلى تبوك لحرب الروم ، أبي
الإخوة الأربعة إلا أن يخرجوا معه شوقا إلى فدايه . . ولكنهم
عادوا معه بعد النصر سالمين . .

ورأى رسول الله أن يضاعف تكريمه لهؤلاء الإخوة الأربعة
وقد استعصت عليهم الشهادة حين طلبوها في كل موطن . . فبعث
يابان أميرا على البحرين حينما عزل عنها ﷺ العلاء بن الحضرمي ،

وبعث بخالد أميرا على اليمن ، كما بعث بعمر و أميرا على تيماء وخيبر ..
أما عبدالله فقد طلب إلى الرسول الأعظم أن يبقى بجواره في المدينة
يعلم أبناء المسلمين ، فاستبقاه ..

ونزل قضاء الله بساحة رسوله ، واختار سبحانه إلى جواره خير
أصفياه من خلقه .. فعظم المصاب على المسلمين ، وترك الخطب
الجلال في قلوب الإخوة الأربعة ، فترك إبان وخالد وعمر وإماراتهم ،
زهذا فيها بعد رسول الله ، وعادوا إلى المدينة ، فأسرع إليهم الصديق
- خليفة رسول الله - وقال :

- ما لكم رجعتم ؟؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله ﷺ .

ولكنهم أبو لا ترك الإمارة في جد وإصرار ، وقالوا :

- نحن بنو أبي أحيجة ، لا نعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ .

وعظم المصاب على أبناء سيد بني عبدشمس ، فاستعظموا أن
يباعوا أبا بكر رضي الله عنه بعد رسول الله ، فاعتزلوا بيعته
وتخلفوا عنها .. لقد أرادوا أن تكون الخلافة في بيت النبوة دون
غيره .. فذهبوا إلى علي بعد بيعة السقيفة ، وكان عنده عثمان ، فقالوا :
- أَرْضَيْتُمْ يَا بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ أَنْ يَلِيَ الْأَمْرَ عَلَيْكُمْ غَيْرَكُمْ ؟؟ إِنْكُمْ
لَطَوَالِ الشَّجَرِ ، طَبِو الثَّمْرَ ، وَنَحْنُ نَتَّبِعُ لَكُمْ ..

وبلغ أبا بكر النبا ، فابتسم ابتسام الواثق بنفسه ، وأدرك أن
الإخوة الأربعة وإن كانوا يعلمون حقه وفضله وسابقته ، إلا أنهم

يظنون أن عاليا كرم الله وجهه أولى بالأمر منه ، لا اقرايته من رسول الله فحسب ، وإنما لأنه أشد أصحاب رسول الله بأسا على أعداء الله . . فتركهم رضى الله عنه لشأنهم دون إرغام على البيعة ، وإن كان ذلك قد أغضب الفاروق عمر بن الخطاب ، فوجد عليهم فى نفسه . . وبابع بنو هاشم أبا بكر بعد ثلاثة أشهر ، تكال من خلالها السعى إلى الوفاق بالنجاح ، فالتأمت وحدة المسلمين التئاما . . ثم بابع على كرم الله وجهه على ملا الناس فى المسجد . . وهو يقول لآبى بكر :

يا والله لا نقيلك ولا نستقيلك أبدا . . قدمك رسول الله لإصلاح ديننا ، فمن الذى يؤخرك لتوجيه ديانا ؟ ؟

وبقى أبناء سيد بنى عبد شمس وخدمهم دون الدخول فيما دخل فيه الناس . . ولكن أبا بكر الذى يعلم ما كان من حب رسول الله لهم ، وتقديره لحقهم ، أبى أن يرغمهم على بيعته . . بل أبى إلا أن يصلهم ويزورهم فى ديارهم بنفسه ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . .

ودخل الصديق على خالد بن سعيد ذات مرة ليعوده ، وكان حب أبى بكر قد تمكن من قلب خالد فقال مداعبا :

- أوتحب أن أبابعك ؟ ؟

وأشرق وجه الصديق ، وقال :

- بل أحب أن تدخل فى صالح ما دخل فيه المسلمون . .

فقال خالد :

— موعذك العشية أبابك إن شاء الله . .

وفي العشية ، كان أبو بكر على المنبر ، حين دخل خالد المسجد فبايعه على ملا الناس . . ثم بايع إخوته جميعا . .

(٦)

انتشرت حركة الردة بين القبائل على أثر صعود رسول الله ﷺ . وارتفعت ألوية العصيان تعان الحرب على أهل التوحيد في كل مكان . . وما لبث المرتدون أن جمعوا كيدهم وجموعهم للقضاء على المسلمين ، بعد أن طردوا عمال أبي بكر وجباة من مختلف الأمصار . .

وكانت الطامة الكبرى . . فقد تقلص ظل الإسلام ، حتى انتهى إلى حدود المدينة ومكة والطائف وعبد القيس . . وكاد يزول كله عن أرض الجزيرة تحت ضغط الكفر الشديد . .

ومن خلال تلك المحنة ، بلغ الخوف أقصاه في أعماق صحابة الرسول ﷺ على مصير الإسلام قبل غيرهم . . حتى لقد تقدمهم عمر بن الخطاب نفسه إلى أبي بكر ، وقال :

— يا خليفة رسول الله ، تألف الناس وارفق بهم ، فإنهم بمنزلة

الوحش الكاسر . ١١

عند ذلك . . فاجأهم أبو بكر بما لم يكن في حسابهم أبدا . . لقد انتفض رضى الله عنه انتفاض المحموم ، وقبض على لحية الفاروق قبضة كادت أن تغشيه . . وقال :

- رجوت نصرك وجئتني بخذلانك . . أجبارا في الجاهلية
خوارا في الإسلام ؟ بماذا عسى أن أتألفهم ؟؟ بشعر مفتعل ؟؟ أو
تسحر مفترى ؟ هيهات هيهات !! مضى النبي ﷺ وانقطع الوحي . .
والله لأجاهدنيهم ما استمسك السيف في يدي ، وإن منعوني عقالا . .
والله لو لم أجد أحدا أقاتلهم به لقاتلتهم وحدي ، حتى يحكم الله بيني
وبينهم وهو خير الحاكمين . . والله لو خالفتني شمالي لقطعتها يميني . .
وتغلغل الأمل في نفوس أصحاب رسول الله ﷺ . . وقد
طغت عليهم روح أبي بكر ، فانقلب غمهم فرحا . . كأنهم قد خلقوا
من جديد . .

وانتظمت صفوف المسلمين في جيوش الإسلام تحت راية أبي
بكر ، ألوية ألوية ، ولم يتخلف عن الخروج إلا ضعيف أو مريض . .
وخرج أبناء سيد بني عبد شمس يتقدمون الصفوف ، ليعلوا كلمة
الله ، وليشهدوا رسوله وهو في المأ الأعلى ، على أنهم بعهده قائمون
حتى يلقوه . .

وفي ميدان انيامة اشتد البأس وحمى الوطيس ، وانهمزم المسلمون
أول الأمر أمام ضغط الأعداء وقوتهم . . ثم ما لبثوا أن صمدوا
وشدوا ، حتى انقلب ميزان المعركة ، وسارت ريح النصر في ركابهم
إلى الفتح المبين . .

وعمد المسلمون إلى شهدائهم يجمعونهم في الميدان ، وكما كانت
تجيعتهم عند ما رأوا عبد الله بن سعيد بن العاص ، في مقدمة

الشهداء . . وقد احتوشته الرماح من كل جانب ، ورأوا في صورته
البأس في كيد المرتدين ، كما رأوا في وجه الرضى بمقعد صدق عند
ملك مقتدر .

وهكذا سطر أبناء سيد بنى عبد شمس الخمسة ، الصفحة الثانية في
سجل الغداة . .

...

وانقشع عن أرض الإسلام ظلام الفتنة السوداء ليزغ في
الوجود نور فجر جديد ، يخرق شعاعه حدود الجزيرة ، متجها إلى
أرض كسرى وقصر، ليجو عن أرض الله غيوم الشرك والكفران،
وليقشع عن سماءها سحب البغى والفساد . . فأكاد خليفة رسول الله
يقضى على حركة الردة بين القبائل ، حتى نادى في جند الله باقتحام
فارس والروم في يوم واحد . . فتهاً المسلمون في جيشين هائلين ،
امثالاً لأمر الصديق . .

ونظر رضى الله عنه فيمن يوليه القيادة على جيش الشام الرهيب ،
وأخذ ينزع كنياته ليرى أصابعاً معدنا ، وأشدّها عودا . . حتى
امتدى إلى خالد بن سعيد ، أكبر أبناء سيد بنى عبد شمس ، فاختاره . .
إن أبا بكر ليذكر امتناع خالد عن بيعته من قبل ، حتى لقد كان آخر
من بايع ، ولكنه يدرك تمام الإدراك أنه ما تخلف إلا لحبه لآل
البيت . . فعقد له اللواء وحمله بنفسه إلى بيته !!

وثار الفاروق عمر بن الخطاب ، ولم يستطع ضبط أعصابه حين

علم بالامر . . إنه لا يزال يجد على خالد في نفسه أشد الموجدة منذ موقفه من البيعة . . ذلك الموقف الذي كان يخشى منه بعث الفرقة بين صفوف المؤمنين ، فمالث أن أسرع إلى أبي بكر ، ليثنيه عن عزمه ، وقال :

- يا خليفة رسول الله ، تولى خالدا وهو القاتل ما قال ! ؟

وصمت أبو بكر حائرا ، ولكنه أثر في النهاية رضام عمر ، وإن كان يعلم أن خالدا العظيم لا يتطالع إلى جاه أو زعامة ، بعد أن تنازل عن إمارته على اليمن حين علم بصعود رسول الله ﷺ . . بل إن الصديق ليذكر إلحاحه عليه للعودة حينذاك ، فما كان منه إلا الإصرار الشديد حيث قال :

- والله لا أعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ أبدا . .

ومن ثم أرسل الخليفة أبا أروى الدوسي إلى خالد ، فقال له :

- إن خليفة رسول الله ﷺ يقول لك : « أردد علينا لواءنا ..

هنا لك أسرع خالد إلى حجرته وأخرج اللواء ، ودفعه إلى أبي

أروى وهو يتسهم وقال :

- والله ما سرتنا ولا يتكم ، ولا ساءنا عزاكم ! !

ثم صمت قليلا وكأنه يناجي أبا بكر في سره ، وقال :

- إن المليم لغيرك !

وما أن وصل أبو أروى باللواء إلى أبي بكر ، وذكر له ما قال

خالد ، حتى أخذته رضى الله عنه عبرة حانية . . فأسرع إلى ابن سيد

بنى عبد شمس . . وأخذ ينفذ إليه حبه ورضاه ، وجعل يعتذر

إليه عما كان من أمر ، ويرجوه ألا يذكر عمرا بما يكره ..
وتأهب الجيش الرهيب ، وقد قسمه الخليفة إلى ثلاثة ألوية ،
على أحدهما يزيد بن أبي سفيان ، وعلى الثاني شرحبيل بن حسنة ،
وعلى الثالث عمرو بن العاص ..

وصحب الصديق خالدا إلى ساحة الحشد ، ووقف معه بين
القواد الثلاثة .. وقال له :

- أي الأمراء أحب إليك ؟

وكسى الجلال وجه خالد ، وقد نظر إليه القواد وهو يقول
لأبي بكر :

- ابن عمي عمرو بن العاص أحب إلى في قرابته .. وهذا
شرحبيل بن حسنة أحب إلى في ديني .. فإن هذا أخي في ديني على
عهد رسول الله ﷺ ، وناصرى على ابن عمي !

وخشع الجميع أمام صوت الإيمان ، وقد انبعث من قلب خالد ..
وأخذت العبرات تنساقط من عين الصديق تأثرا وحنانا وحبا .. وما
لبث أن التففت إلى شرحبيل ، وقال :

- انظر خالد بن سعيد ، فاعرف له من الحق عليك ، مثل ما كنت
تحب أن يعرفه لك من الحق لو خرج واليا عليك .. وقد عرفت
مكانه من الإسلام ، وأن رسول الله ﷺ توفي وهو له وال ..
وقد كنت وليته ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيرا في
دينه .. ما أغبط أحدا بالإمارة وقد خيرته في أمراء الأجناد

فاختارك على غيرك ، وعلى ابن عمه !! فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأى التقي الصالح ، فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ، وليك خالد بن سعيد ثالثا . . فإنك واجد عندهم نصحا وخيرا . . وإياك واستبداد الرأى عنهم ، أو تطوى عنهم بعض الخبر . .

ودرى نفي الزحف ، فسارت جيوش الشام ، حيث سار خالد في تواضعه جنديا بسيطا تحت لوام شرحبيل . . بينما سار أخواه إبان وعمره ، وتحت لوام عمرو بن العاص .

وفي مرج الأصغر ، التحم جيش شرحبيل بن حسنة بـكتل العدو المتراصة . . وحى الوطيس بين أهل التوحيد وعبد الطاغوت واشتد البأس بين المسلمين في قلتهم ، والمشركين في كثرتهم وعدتهم . . وسيطرت روح الصديق على سماء المعركة ، فأذاق جنده أعدام الله ألوانا من العذاب والتنكيل . . وتآلق في سماء المعركة نجم خالد وهو يفرى في الأعدام فريا ، ويطوح برؤوسهم يمينا وشمالا . . حتى إذا مانع المسلمون بالنصر المبين ، كانت روح خالد ترفرف في سماء المعركة بأجنحة الرضى بين أرواح الشهداء والصالحين . .

وهكذا سطر أبناء سيد بنى عبد شمس الخمسة ، الصفحة الثالثة في سجل الفداء .

وفي أجنادين . . التقي جيش عمرو بن العاص بقوات الروم في

خيلائها ونخرها ، وكان الخطر الأعظم على مصير القلة المؤمنة ، وقد أحاطتها الكثرة الغاشمة من كل جانب . . . والتجم الفريقان المتباينان ، وسالت الدماء على أرض المعركة أنهارا . . . وسيطرت روح الصديق على سماء المعركة مرة أخرى ، وصدق المسلمون الخلة ، فقطع أعداؤهم تطاير ربات الحجال . . . !

وانجلى المعركة الرهيبة عن أعظم نصر صادفه المسلمون في أرض قيصر . . . وقد سطر أبناء سيد بنى عبد شمس من خلالها الصفحة الرابعة والخامسة في سجل الفداء .

وهتف من سماء الخلود هاتف ملائكي ، استقر صداه بين جدران المدار الخاوية - دار سيد بنى عبد شمس - بظاهر مكة . . . وظل يناجي طيف أولئك الخمسة الآيين إلى ربهم ، وقد خلفوا وراءهم ذكريات مجد عريض أعرضوا عنه ، وذكريات بلاء كريم أقبلوا عليه . . . ابتغاء مرضاة الله ورسوله . . . وجنة عرضها السموات والأرض . . .

وارتفع الصوت قليلا ، ليدوى في دار الذكريات بنغمات الخلود . . .
« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . .